الفصل الثاني

حرية الفكر الإسلامي

حرية الفكر في الإسلام تنقسم إلى قسمين: الأول حرية الرأي، والثاني حرية التفكير العلمي؛ فقد كفل الإسلام للمسلم الحرية الفكرية بقسميها، وقد أعطاه، بل أوجب عليه أن يبدي رأيه بأي وسيلة يشاء، وأن يجهر بما يرى، فلا يخاف في الحق لومة لائم، وتوعد من يكتم حقا في صدره، أو يحبس رأي فيه نفع للأمة في مجموعها العذاب الاليم يوم القيامة، فقد وصف الله الامة الإسلامية بقوله:

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) سورة آل عمران آية ١١٠.

وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ويَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا). سورة البقرة آية ١٤٣.

فقد أعطى الإسلام المسلم الحق أن يعتنق ما يراه بصدد ظواهر الفلك، والطبيعة، والحيوان، والنبات، والإنسان، واعتناق ما يقنع بصحته من نظريات. ولا يختلف موقف الإسلام في نوع من

العلوم دون نوع آخر، فلم يحاول أن يفرض على العقول أي نظرية علمية معينة، سواء كانت في علم الفلك، أو الحيوان، أو النبات، أو الإنسان، ولم يتعرض لتفاصيل هذه الشئون، بل رسم الخطوط العريضة، ثم استحث العقول على النظر في الظواهر والخفايا، وحفز الناس على التأمل في هذه الشئون كلها واستنباط قوانينها العامة، وأثر في نفوسهم حب الاستطلاع حيال الأمور التي لا تثير الانتباه .

والإسلام لا يعادي العلم ولا يجافي العلماء، بل يجعل العلم فريضة مقدسة داخلة في العبادات والشعائر الدينية؛ حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم)، كما يقول صلوات الله عليه وسلامه في حق الرحلة في طلب العلم: (ومن سلك طريقًا يطلب فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة). ويقول الله تبارك وتعالى في الحث على طلب العلم:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ). سورة النحل آية ٤٣.

(فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ولِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إذَا رَجَعُوا إلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) سورة التوبة آية ١٢٢.

ويقول رسول الله صلى عليه وسلم: (من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع).

والله سبحانه وتعالى ورسوله يحثان على طلب العلم والتعلم، فقد أشاد الله بالعلم وذلك عندما أنزل أول تنزيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث حثه على القراءة، وذلك في قوله تعالى:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) سورة العلق الآيات ١، ٥.

وأشار سبحانه وتعالى إلى أدوات القراءة والكتابة، فأقسم بالقلم، وما يسطر القلم، والرق المنشور؛ أي الصفحات المكتوبة، والكتاب المسطور؛ أي الكتاب المكتوب الذي يقرأ، وذلك في قوله تعالى:

(ن، والْقَلَمِ ومَا يَسْطُرُونَ) سورة القلم الآيتان ١، ٢.

(وَالطُّورِ وكِتَابٍ مَّسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ) سورة الطور الآيات ١– ٣.

والعالم والمتعلم لهما أجر عند الله وثواب؛ وذلك لقول رسول الله ﷺ: (العالم والمتعلم شريكان في الأجر، ولا خير في سائر الناس بعد). وقد أمر رسول الله ﷺ بالعلم والتعلم في حديثة: (أعد عالما متعلما ولا تعد بين ذلك). وقد وقف رسول الله ﷺ بين الناس خطيبا يعاتبهم على عدم التعليم والتعلم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم، ولا يعلمونهم، ولا يعظونهم، ولا ينهونهم؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم، ولا يتفقهون، ولا يتعظون؟ والله ليتعلمن قوم جيرانهم

ويتفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة).

ولم يعرف التاريخ الإسلامي تلك الاضطهادات المنكرة المنظمة لرجال الفكر أو رجال العلم، فقد أشاد الله بالعلماء وربط الإسلام التقوى بالعلم، وجعل العلم سبيلًا إلى معرفة الله وخشيته، فقد قال الله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ).

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ والْمَلائِكَةُ وأُوْلُوا العِلْمِ) سورة آل عمران آية ١٨.

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ والَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ) سورة المجادلة آية ١١.

ويفضل الله العلماء على الجهال؛ بل جعل فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، فيقول الله عز وجل : (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ).

ويقول رسول الله ﷺ: (فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب)، كما يقول عليه أفضل الصلاة والسلام: (قليل العلم خير من كثير العبادة)، ويقول ﷺ: (يبعث الله العالم والعابد، فيقال للعابد ادخل الجنة، ويقال للعالم اشفع الناس كما أحسنت أدبهم).

وكما سبق القول لنا أن الإسلام لم يبن شرائعه على خوارق العادات وغامض المعجزات، كما أنه لم يقم على الغيبيات، إنما قام على التأمل، والمشاهدة، والنظر في آيات الكون وأسباب الحياة.

وقد أمر القرآن الكريم أن يتأمل المسلمون في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وخلق الإنسان وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، وكثير من الآيات في كتاب الله عز وجل تدعو إلى التأمل في تكاثر النبات وتناسل الحيوان، وطفو بعض الأجسام على الماء، وغير ذلك من مسائل العلوم والفنون. ويوحي القرآن إلى الإنسان أن كل تلك الفنون والمعارف جديرة بالتطلع والتفكير مثل قوله تعالى:

(أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) سورة الغاشية الآيات ١٧- ٢٠.

(ومِنْ آيَاتِهِ الجَوَارِ فِي البَحْرِ كَالأَعْلامِ إن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) سورة الشورى آية ٣٣.

(أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ومَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ). سورة الأعراف آية ١٨٥.

(وآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وأَعْنَابٍ وفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العُيُونِ). سورة يس آية ٣٣، ٣٤.

ثم ترى القرينة في عرضه الآيات التي تجل عن الحصر، يجعل خاتمتها دائما بقوله تعالى: (إنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ) .. (إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)، (إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)، (إنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ).

وهكذا ترى الآيات منبهة الأبصار، شاحذة السمع، آمرة العقل بالتدبر، والألباب بالتفهم، موقظة النعسان، كلها دعوة للتفكر، والتأمل، والبحث، والتنقيب، والاستطلاع. ففي جميع الآيات السابقة وغيرها من كتاب الله التي لم نستطع حصرها ومن أحاديث رسول الله ﷺ، لا يمكن أن يشتم الإنسان أن الإسلام فرض علمًا معينًا، أو طريقة معينة في البحث؛ بل ترك الهدف، والغاية، والوسيلة للإنسان في حدود ما رسمه من خطوط عريضة، فترك لكل فرد بعد ذلك كامل الحرية في تقرير ما يراه.

وقد كفل الإسلام للإنسان حرية الخطابة، وحرية الصحافة، وحرية التفكير والبحث العلمي، وبذلك كان المسلمون في أول عهد الإسلام والعصور التالية له سادة الأرض وعلماءها، ففتحوها وعمروها بعلمهم، وبحوثهم، وفنهم؛ والأندلس بفنها العربي لتشهد بذلك، وكفى أن يؤمر المسلم بأن يدعو الله حسب أمره في كتاب الله العزيز: (وقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا). سورة طه آية ١١٤.